أغنياء من التعفف 74
الخذلان النبيل 77
حلم الاعتراف.. 80
الخردة 82
خديجة وسياج الكبرياء 85
اليتيم... 88
الربيع العربي.. 91
العودة.. 94
الهروب مجددًا... 97
خيانة الجسد.. 100
الحرية... 105
الوصية.. 107
النهاية... 108
خاتمة 109

فهرس

مقدمة 7
الصرخة الأولى 8
الرجل الصغير 13
الخوف الأخضر 15
الدرس الأول 18
همس السنابل.. 21
غصن البراءة 24
شجرة سدر 27
ارحل 31
الجامعة والكمين الأخضر.. 34
صمتك معارضة.. 40
هدنة الشوق... 43
مساومة الأفاعي 46
المناورة الخاسرة.. 49
سراب الحرية 52
الكمين الأخضر 55
معراج الألم وخيانة الجسد 58
الميثاق... 63
الهروب 66
الأوراق 69
صومعة الغريب 72

خاتمة

انتهت حياة حسن، ولم تنتهِ مأساته، فما زال في كل زاويةٍ من أرض العرب 'حسنٌ' آخر يصارع الموج أو يغازل السياط. لقد مات الغريبُ في بلاد الغرباء، فكان قبره واحةً من الكرامة في صحراء المهانة.

يا أيها القارئ لهذه السطور، اعلم أنَّ الموت ليس هو الفجيعة الكبرى، بل الفجيعة أن يموت الإنسان قبل أن يجد نفسه. أما حسن، فقد وجد نفسه في لحظة الرفض، وصانها في سنوات التيه، وحملها طاهرةً إلى بارئها. فسلامٌ عليه يوم وُلد في غبار ترهونة، وسلامٌ عليه يوم مات في صقيع ألمانيا، وسلامٌ عليه يوم يُبعثُ حرًا لا تُكبِّله القيود ولا تلوثه الصور.

أيها المتأمل في هذه الملحمة..

لقد طوينا سجلات حسن، لكن يبقى السؤال الذي تركه معلقًا في هواء ترهونة البارد. هل المأساة في أننا نهاجر بحثًا عن الكرامة، أم في أنَّ الكرامة تجعلنا نعيش ونموت غرباء حتى داخل أنفسنا؟

(تمت بحمد الله)

النهاية

توفي حسن وحيدًا، لكنه لم يكن مستوحشًا؛ فقد كانت أرواح الراحلين من أهله تحفُّ سريره. وجده الجيران بعد يومين وهو يحتضن مذكراته كأنها طفله الوحيد، وعلى وجهه وقارٌ عجيب أخجل الموت نفسه.

بعد رحيله، قام صديقه الوفي رشيد بجمع أوراقه. لم يجدوا في غرفته شيئًا من حطام الدنيا، غير أنهم وجدوا كنزًا يختصر مأساة جيلٍ سُحق بين مطرقة الاستبداد وسندان المنفى.

نُشرت مذكراته في ألمانيا باللغة العربية، وترجمت للألمانية كشهادةٍ صارخة على كرامة الإنسان.

وبطريقةٍ ما، عبرت نسخة مطبوعة الحدود والبحار، ووصلت إلى ترهونة، إلى يد فاطمة. جلست فاطمة في بيتها القديم، تتشح بوشاحها الأسود ووقار سنيها، وفتحت الكتاب بيدين ترتجفان. سقطت دمعة حارة بللت الإهداء الذي كتبه حسن بدم قلبه قبل وفاته:

- إلى فاطمة.. التي انتظرت بطلًا، فجاءها مهندسٌ مكسور الجناح، لكنه لم ينحنِ لغير خالقه.

قرأت فاطمة المذكرات صفحةً بصفحة، كانت تستشعر أنفاس حسن بين السطور، وتسمع صوته يتردد في أرجاء الغرفة. أغلقت الكتاب ونظرت نحو الأفق البعيد، حيث ترقد ذكريات حبٍ لم تقتله الغربة ولم تهزمه الأيام.

الوصية

أنا حسن بن صالح الترهوني، العائدُ من الموتِ مرتين؛ مرةً حين ركبتُ البحر، ومرةً حين رأيتُ حلمي يذبح في شوارع وطني. أكتبُ هذه الكلمات وعظامي توشك أن تصير ترابًا في أرضٍ لا تعرف اسم جدي، وقلبي يفيضُ بيقينٍ لم تمنحه لي جامعات بنغازي ولا صوامع برلين.

أوصيكم، يا من تقرأون مذكراتي، بثلاثةِ أركانٍ هي عماد الوجود في زمن التيه:

- أزمة البقاء: لا تبيعوا وجوهكم من أجل البقاء. لقد عرضوا عليَّ الأوراق مقابل المهانة فرفضت، وعرضوا عليَّ الجاه مقابل النفاق فزهدت. اعلموا أنَّ "الغربة في الأوراق" أهونُ ألف مرة من "الغربة في المرآة". من خسر وجهه أمام نفسه، لن يجد وطنًا يستقبله ولو ملك الأرض قاطبة.

- الهوية: لقد حافظتُ على إسلامي في بلاد الثلج، ولم يكن هذا تعصبًا، بل لأنه كان الوتد الوحيد الذي يربطني بمركز الأرض حين عصفت بي رياح الحداثة الباردة. لا تكونوا مسوخًا؛ فالعالم لا يحترم من يمحو ملامحه ليرضي الآخرين، بل يحترم من يحمل قِيَمَهُ كأنها تاجٌ من شوك، بصبرٍ وعزة ونبل.

- الوطن: لقد أوجعتني ترهونة وأدبرت عني ليبيا، لكنني لم أكفر بالتراب. المأساة ليست في الوطن، بل في الذين استبدلوا القوة بالحق. إذا ضاق بكم الوطن، فاجعلوا من أرواحكم أوطانًا. ابنوا مدنكم الفاضلة في صدوركم أولًا، فإن لم تجدوا في الأرض مستقرًا، فإن في السماء متسعًا للمظلومين.

كان يبكي في صمته وهو يتخيلها تمسح على رأسه المنكوب بالهموم وتقول له بوقار:

- ارتاح يا حسن.. ترهونة كلها عرفت إنك عشت راجل ومت راجل.

تذكر حسن الحاج صالح وكبرياءه المعهود:

- ولدك بيموت راجل، وما باع دينه ولا عرضه.

وتذكر أمه مبروكة، وتمنى لو يدفن وجهه في حجرها للمرة الأخيرة، ليخبرها أن الغبار الذي عانق طفولته قد انقشع تمامًا، وأنَّ كرامته التي حافظ عليها بأسنان العزلة لم تُخدش.

تَشَّهد بصوتٍ هامس لم يسمعه أحد سوى جدران صومعته، وأسلم الروح والابتسامة تعلو وجهه؛ ابتسامة الاستبصار التي لا يملكها إلا من عاش عزيزًا بأنفة الأحرار، ومات حرًا من قيود الوثن.

الحرية

في ليلة شاتية من عام 2023، حين كان الصقيع الألماني يلف النوافذ بستائر من بياض، أحس حسن أنَّ المحرك الذي أرهقته المسافات قد توقف تمامًا عن الدوران. أصر أن يغادر المستشفى إلى غرفته البسيطة التي كانت تفوح برائحة المسك التي كان يشتريها من المركز الإسلامي، كأنها تهيئ المكان لاستقبال روحٍ لم تعرف الاستقرار إلا في محرابها الصامت.

وضع حسن قلمه جانبًا بعد أن أكمل الفصل الأخير من مذكراته التي أطلق عليها اسم "ترهونة: عظامُ الذاكرة". استلقى على ظهره، ونظر إلى السماء من نافذته، لكنه لم يَرَ غيوم أوروبا الثقيلة، بل رأى سماء ترهونة الصافية في ليلة صيفية، حيث النجوم قريبة كأنها قناديل أمل.

في لياليه الأخيرة، حين كان الوجع ينخر عظامه لدرجة الهذيان، لم تغب فاطمة عن مخيلته. لم يستحضرها تلك الأرملة الحزينة التي رآها عام 2011، بل استعادها في صورتها الفطرية الأولى؛ بضفائرها التي تداعب الريح، ورائحة بخورها التي كانت تعطر أحلام شبابه.

تخيل نفسه يجلس معها تحت سقف البيت الذي صممه هو بمسطرته وقلبه، بيتٌ لا سياج فيه ولا مخبرين ولا عسكر. قال لها في خياله بلهجة ليبية عذبة، ممتزجة بأسى السنين:

- يا فاطمة.. سامحيني. أنا هربت مش خيانة ليكِ، أنا هربت لأني حبيت حسن اللي حبيتيه يقعد نظيف. خفت نتحول لمسخ يشبه عمران وسلطان.. خفت نبوس الصورة كل يوم لدرجة ننسى فيها ريحة وجهك وصوتك. سامحيني يا نوارة.. الغربة خذت مني العمر، والسرطان خذا مني العظم، بس حبك قعد هو القلب الوحيد اللي ما قدروا يوصلوا له ولا يلوثوه.

- أدركتُ اليوم أن الغربة الحقيقية ليست في المسافات، بل في هذا الجسد الذي يسكنني ويخونني. عظامي التي حملتني من أزقة ترهونة إلى معامل بنغازي، ومن قوارب الموت إلى مصانع ألمانيا، بدأت تتحول إلى حطام. لكني أدركتُ سرًا لم تدركه السياط: الروح لا عظام لها، ولذلك هي لا تنكسر. إنني أموتُ حرًا في بلاد الثلج، لأني رفضتُ أن أحيا عبدًا تحت وطأة الصورة.

لقد استحال جسد المهندس إلى ساحة معركةٍ أخيرة، معركةٍ لم يكن يطلب فيها النصر على الموت، بل كان يطلب فيها الرحيل الأنيق؛ أن يغادر الدنيا وهو بكامل كبريائه، دون أن يترك للسرطان فرصةً لكسر أنفة الرجل الذي عاش عمره كله يحرس سوره من الانهدام.

الورق كان يزداد ثباتًا وقوة. كان يستفيض في وصف شعوره بالموت الذي يزحف من أطرافه نحو قلبه، يكتب بِيَدٍ ترتجف:

- السرطان يا رفاقي ليس مرضًا، إنه غربةٌ داخلية. إنه أن يستيقظ جسدك في الصباح ليخبرك أنه لم يعد ملكًا لك، وأنَّ الساس الذي قومتُه في ترهونة بالكد والشقاء، ينهدم الآن من الداخل بصمتٍ مرعب. لكني، برغم هذا الصليلِ، ما زلتُ أملك عين البصيرة؛ فالعظم الذي يتفتت اليوم، سيعود ترابًا يومًا ما، والتراب لا يتألم.

كانت الممرضة الألمانية تدخل عليه، فتجد جبهته تتصبب عرقًا وعينيه شاخصتين نحو السقف، فتسأله إن كان يريد "المورفين"، فيهز رأسه بالرفض بأنفةٍ غريبة، هامسًا بكلماتٍ لا تفهمها:

- فُكِّينا من الدَّوَّة الزايدة يا بنتي.. الوجع هذا طهارة، والذَّكَر ما يشكي من جرحه.

في لحظات اشتداد الألم، كان حسن يهمس لنفسه بكلماتٍ ليبية بسيطة، كأنه يواسي الطفل الذي بداخله:

- اصبر يا حسن.. ما عاد في العمر قد ما فات. ترهونة في البال، والحاج صالح يستنى، ومبروكة فرشت السجادة. هانت يا مهندس.. هانت.

كان يشعر أنَّ السرطان ليس عدوًا، بل هو المفتاح الذي سيفتح له باب العودة الأخيرة، عودةٌ لا تحتاج إلى جواز سفر، ولا إلى أوراق لجوء، ولا إلى قُبْلةٍ مُكْرَهة لصورة طاغية.

كان يكتب عن الحب العفيف الذي وأده في صدره حتى لا يظلم فاطمة، وعن الغربة المزدوجة التي عاشها بين جدران "بادوفا" وشوارع "ميونخ". حتى الممرضة الألمانية التي كانت تشرف على علاجه، كانت تراقبه بإعجابٍ صامت وهي تراه يتوضأ ويصلي على سريره رغم الأوجاع التي تنخر عظامه، وكأنه يستمد قوته من عالمٍ آخر لا تراه هي.

دَوَّن حسن في مذكراته كلماتٍ كانت بمثابة وصيته الروحية:

وصل الألم إلى مرحلةٍ صار فيها "الكيماوي" نفسه عبئًا، وصار جسده يرفض كل شيء إلا ذكرياته. كان يشعر بفقرات ظهره وكأنها تتآكل، ليس بفعل الخلايا الخبيثة فحسب، بل بفعل ثقل السنين التي قضاها بعيدًا.

في كل نغزة ألم، كان يرى وجهًا؛ نغزةٌ تذكره بفاطمة، وأخرى تذكره بفتحي، وثالثة تأخذه إلى "صورة الزعيم" وكأنه يدفع الآن ضريبة تلك القُبْلة المكرهة من دمه وعظمه.

أغمض حسن عينيه، فلم يرَ غرفته الباردة، بل رأى نفسه طفلًا في العاشرة، واقفًا بصلابةٍ أمام باب حوشهم في ترهونة، يراقب أخواته الخمس - الأكبر منه - بحرصٍ يفوق سنواته.

تذكر ملامح شقيقاته الكبريات اللواتي غادرن الحوش عرائس، وكيف كان يشعر في كل مرة أن جزءًا من سُورِه قد انتقل لعهدة رجل آخر. تذكر شقيقته التي كانت تكبره بعامين، وكيف كان يسبقها بخطوات في طريق المدرسة ليؤمن لها الدرب، وقلبه الصغير يفيض بعزة "الذَّكر" الذي وُلد ليحمي.

تراءى له وجه أمه "مبروكة" وهي تراقب ملامحه الرجولية المبكرة وتدعو له، ووالده الذي كان يرى فيه "الساس" المتين الذي سيحمل اسم العائلة. همس حسن وهو يصارع أنفاسه الأخيرة:

- يا بوي.. قومت الساس وما خليت حد يطيحه.. وأخواتي أمانتك صنتها حتى وأنا بعيد.

حتى فاطمة، التي تمنى يومًا أن تكون أخته الصغرى ليحميها من ذئاب الزمان، شعر في تلك اللحظة بالسلام؛ لأنه تذكر أنه لم يتركها خيانةً، بل تركها عزةً وأنفة، حتى لا يراها بعين المسخ ولا تراها بعين المهانة.

رفض حسن أن يقضي أيامه الأخيرة في بكائية يائسة. وبدأ في كتابة مذكراته؛ الفعل الوحيد الذي شعر أنه يرمم به شتات روحه. كان العلاج الكيماوي ينهش خلاياه نهشًا، وكان وزنه يتناقص كشمعةٍ تذوب في مهب الريح، لكن خطه على